AL-'ABQARI العبقري
USIM
ISSN 2232-0431 / e-ISSN 2504-8422 **VOL. 25 (1) 2021: 314-328**
UNIVERSITI SAINS ISLAM MALAYSIA Journal of Islamic Social Sciences and Humanities
مجلة الثقافة الإسلامية والإنسانية

Submission date: 23/06/2020 Accepted date: 10/09/2021
DOI: 10.33102/abqari.vol24no2.303

النهج الرائد والنفع الخالد فى الجمع بين النقل والعقل في تفسير ابن جرير الطبرى

The Pioneering Approach and the Eternal Benefit in Integration of Naqli and Aqli in the Interpretation of Ibn Jarir al-Tabari

Syed Mohammad Chaedar Syed Abdurrahman Al-Yahya & Mohammad Widus Sempo
Faculty of Quranic and Sunnah Studies, Universiti Sains Islam Malaysia (USIM)

muhay@usim.edu.my (corresponding author)
widus81@usim.edu.my

ملخص

يهدف هذا البحث إلى إبراز جدارة الإمام ابن جرير الطبرى – صاحب أول تفسير لكتاب الله كاملا الموسوم بـ "جامع البيان عن تأويل آي القرآن" المشهور بتفسير الطبرى – وريادته في نهج التفسير حيث وضع لنا مبدأ يمثل لبنة الأساس للمنهج العلمي في التعامل مع النصوص وهو الجمع بين النقل والعقل أو بين الرواية والدراية. ولتحقيق أهدافه يعتمد البحث على المنهج الوصفي التحليلي بقراءة تفسيره وأقوال العلماء فى إيضاح ميزاته والثناء عليه. ويسفر البحث فى نهايته بعض النتائج المتوقعة منها أن هذا التفسير هو فعلا أول كتاب كامل في تفسير القرآن الكريم يجمع بين النقل والعقل في براعة منقطعة النظير، وأنه يحتلّ ذروةَ التفسير بالمأثور من جانب كما يعتبر من جانب آخر نقطةَ البدء وحجر الأساس لمنهج التفسير بالرأي.

الكلمات الدالة: تفسير، الطبري، الجمع، النقل، العقل.

ABSTRACT

This research aims to highlight the merit of the Imam Ibn Jarir al-Tabari - the author of the first interpretation of the entire Book of God marked with "Jami al-Bayan on the Interpretation of the Verses of the Qur'an", famous for al-Tabari's interpretation - and his leadership in the approach to interpretation, where he established for us a principle that represents the building block of the scientific approach in dealing with texts, which is the combination between naqli and aqli. To achieve its objectives, the research relies on the descriptive analytical method by reading his interpretation and the sayings of scholars to clarify its features and praise it. At the end of the research, some results are expected from it that this interpretation is actually the first complete book in the interpretation of the Noble Qur'an that combines naqli and aqli in an unparalleled ingenuity, and that it occupies the pinnacle of interpretation with the adage on the side, and on the other side it is considered the starting point and the cornerstone of the approach to interpretation by opinion.

Key words: Interpretation, al-Tabari, Integration, Naqli, Aqli

ترجمة ابن حرير الطبري

هو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري الشافعي مذهبا والسلفي عقيدة، الإمام المحدث الفقيه المقرئ المؤرخ المعروف المشهور، أحد الأعلام الجهابذة فى التفسير والتاريخ وغيرهما، وصاحب التصانيف. (al-Hamawi, 1993). كان مولده سنة أربع أو أوّل سنة خمس وعشرين ومائتين، وكان أسمر الأَدَمَة، أعْيَن أي عظم سواد العين وسعتها (Ibn Manzur، 1993) نحيف الجسم، مديد القامة، فصيح اللسان. (al-Hamawi, 1993).

وقد استفسر القاضى ابن كامل عن وقوع هذا الشك في تاريخ ولادة أبى جعفر الطبري، فأخذ يقول له متسائلاً: ''كيف وقع لك الشك فى ذلك؟''، فأجاب الطبري: ''لأن أهل بلدنا يؤرخونا بالأحداث دون السنين، فأرخ مولدي بحدث كان في البلد، فلما نشأت، سألت عن ذلك الحادث، فاختلف المخبرون لي، فقال بعضهم: كان ذلك فى آخر سنة أربع، وقال آخرون: بل كان في أول سنة خمس وعشرين ومائتين، وكان مولده بآمل (Amol) التي هي أكبر المدن بطبرستان في السهل (*طبرستان إحدى الأقاليم في شمال بلاد فارس، تقع اليوم على ضفاف بحر قزوين، فهي تقع الآن شمال إيران، بينها وبين الريّ التي تسمى طهران الآن ليست*

ببعيدة. فمدينة الطبري التي هي آمل تقع شمال طهران. (al-Hamawi, 1977) لأن في طبرستان سهلا وجبلا. (al-Hamawi, 1993)

نشأ أبو جعفر الطبري في كنف العلم منذ صغره. ففى سنة 231هـ وبعد أن أصبح عمره سبع سنوات كان قد أكمل حفظه للقرآن الكريم، وذلك لرؤية رآها أبوه له وهو صغير. كان أبوه رجلاً عاميًا، إلا أنه كان رجلاً صالحاً ويحب العلم وأهله، رأى في منامه أن ابنه محمد الصغير بين يدي مِخلاة مملؤة حجارة، وهو جالسٌ بين يدي النبي ε يرمي بهذه الحجارة، كأنه يذُب عن النبي ε ويدافع عنه، فلما سأل الأبُ المعبرين عن تعبير هذه الرؤيا، قالوا: إن ابنك هذا يكبر ويذُب عن دين الإسلام وعن سنة النبي ε، فعُني به منذ ذلك الوقت، وأعانه على طلب العلم وعلى حفظ القرآن. فما بلغ السابعة من عمره، إلا وقد أتم حفظ القرآن الكريم، ثم لما بلغ عمره تسع سنوات بدأ يكتُب الحديث عن شيوخ الحديث. وقد بدأ بشيخ الحديث في مدينة الرَيّ، وهي مدينة قريبة من مدينة آمُل، الشيخ محمد بن حميد الرازي رحمه الله تعالى. وقد سمع منه محمد بن جرير الطبري ما يزيد عن مائة ألف حديث. فلما بلغ عمر محمد بن جرير الطبري اثنتي عشرة سنة رحل من بلدة آمُل لطلب العلم، فأخذ يتنقل في المناطق القريبة من مدينته يطلب العلم على شيوخ ذلك الزمان إلى أن يصبح فريد دهره يقصده القاصي والداني. (al-Hamawi, 1993)

توفي رحمه الله تعالى – فيما ذكره أبو بكر الخطيب – يوم السبت لأربع بقين من شوال سنة عشر وثلاثمائة، ودفن يوم الأحد بالغداة في داره برحبة يعقوب، ولم يغير شيبه، وكان السواد في شعر رأسه ولحيته كثيرًا. (El al-Hamawi, 1993) وقال غير الخطيب: ''ودفن ليلاً خوفًا من العامة؛ لأنه يتهم بالتشيع. وأما الخطيب فإنه قال: ''ولم يؤذن به أحد، فاجتمع على جنازته من لا يحصى عددهم إلا الله، وصلّيَ على قبره عدة شهور ليلاً ونهارًا، ورثاه خلق كثير من أهل الدين والأدب''. اهـ (al-Hamawi, 1993)

التعريف بتفسير الطبرى المسمى بجامع البيان عن تأويل آي القرآن.

وفي وصف ما اشتمل عليه هذا التفسير من علوم يقول أبو محمد الفرغاني: ''ابتدأ كتابه بخطبة ورسالة في التفسير تدل على ما خصّ الله به القرآن العزيز من البلاغة والإعجاز والفصاحة التي نافى بها سائر الكلام، ثم

ذكر مقدمات الكلام في التفسير، وفي وجوه تأويل القرآن وما يعلم تأويله، وما ورد في جواز تفسيره وما حظر من ذلك، والكلام في قول النبي ε: « أنزل القرآن على سبعة أحرف »، وبأي الألسنة نزل، والرد على من قال: إن فيه أشياء من غير الكلام العربي، وتفسير أسماء القرآن والسور، وغير ذلك مما قدمه، ثم تلاه بتأويل القرآن كلمةً كلمةً، فذكر أقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من تابعي التابعين وكلامَ أهل الإعراب من الكوفيين والبصريين، وجملاً من القراءات، واختلاف القراءة فيما فيه من المصادر واللغات والجمع والتثنية، والكلامَ في ناسخه ومنسوخه، وأحكام القرآن والخلاف فيه والترجيح بين الآراء، وكلام أهل النظر فيما تكلم فيه بعض أهل البدع، والرد عليهم على مذهب أهل الإثبات ومبتغي السنن إلى آخر القرآن، ثم أتبعه بتفسير أبي جاد وحروفها وخلاف الناس فيها، وما اختاره من تأويلها بما لا يقدر أحد أن يزيد فيه، بل لا يراه مجموعًا لأحد غيره.'' اهـ (Ed Dawudi, n.d, al-Hamawi, 1993)

وقد بالغ في وصف القيمة العلمية لهذا التفسير جلال الدين السيوطي، وذلك عند مقارنته هذا التفسير وغيره من تفاسير الأقدمين، حيث قال رحمه الله: ''وكتاب ابن جرير الطبري أجل التفاسير وأعظمها، فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال، وترجيح بعضها على بعض، والإعراب والاستنباط، فهو يفوق بذلك على تفاسير الأقدمين.'' اهـ بتصرف (Jalal al-Din al-Suyuti, n.d)

واتبعه في ذلك محقق هذا التفسير الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، وزاد قائلا: ''إن كتاب جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، هو أجل كتب التفسير قاطبة وإمامها، ليس لأوليته الزمنية فحسب؛ بل لأنه فريد في بابه، لم يسبق ابنَ جرير أحدٌ إلى مثله، وعلى ذلك أجمع العلماء سلفًا وخلفًا، وما من مفسر إلا وقد اعترف من تفسير الطبري، فكان ابن جرير – بحق– إمام المفسرين وقدوة المتأولين؛ إذ جمع في تفسيره بين الرواية والدراية، فمع عنايته الفائقة بالتفسير النقلي عن الصحابة والتابعين بدرجة يستقصي فيها وجوه الروايات عنهم، فإنه يعني بنفس القدر بالتفسير العقلي الذي يتعرض فيه لتوجيه الأقوال توجيهًا دقيقًا وترجيح بعضها على بعض، وأيضًا فإن ابن جرير يهتم بالإعراب اهتمام الحذاق به؛ لما في اختلاف وجوه إعراب آي القرآن من اختلاف وجوه تأويله.

ومن ثم ظهرت فحولة الطبري أيضًا في علوم اللغة العربية صرفًا وتركيبًا ودلالة، فمن اطلع على تفسيره ووقف على تبيينه للمعاني وغريبها واستشهاده بأشعار العرب فى الجاهلية والإسلام يعتقد أن الرجل قد انقطع لهذا العلم ولم يطلب غيره، فعلى الرغم من نقله عن الفراء في «معاني القرآن» وأبي عبيدة في «مجاز القرآن»، إلا أنه كثيرًا ما يخطئهما ويرد عليهما ويذكر خلاف ما قالا، شافعًا ما يذكره بالحجة الدامغة والبرهان الساطع وكلام العرب وأشعارهم، وهذا يدل على أن الطبري فارس ميدان وممارس فصاحة وبيان، نشر التفسير نشرًا وطار به ذكرًا، فهو — بحق — إمام المفسرين وقدوة المتأولين.'' اهـ بتصرف (At Turki, 2001). هذا، وقد أملى الشيخ ابن جرير تفسيره على تلاميذه من سنة 283هـ إلى سنة 290هـ، ثم قرئ عليه سنة 306هـ (al-Hamawi, 1993)

مصادر الشيخ أبي جعفر الطبري في تفسيره:

لا شك أن الإمام الطبري نقل في تفسيره الكثير من تفسير الصحابة والتابعين– رضوان الله عليهم أجمعين – ، فلا يكاد يخلو تفسير آية من أقوال الصحابة والتابعين في تفسيره. (Az Zahabi, 2008). وقد دوّن ما وصل إليه في ذلك بالرواية عن كتب التفاسير المصنفة عن ابن عباس خمسة طرق، وعن سعيد بن جبير طريقين، وعن مجاهد بن جبر ثلاثة طرق، وربما كان عنه في مواضع أكثر من ذلك، وعن قتادة بن دعامة ثلاثة طرق، وعن الحسن البصري ثلاثة طرق، وعن عكرمة ثلاثة طرق، وعن الضحاك بن مزاحم طريقين، وعن عبد الله بن مسعود طريقًا، وتفسير عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وتفسير ابن جريج، وتفسير مقاتل بن حيان، سوى ما فيه من مشهور الحديث عن المفسرين وغيرهم، وفيه من المسند حسب حاجته إليه، ولم يتعرض لتفسير غير موثوق به، فإنه لم يدخل في كتابه شيئًا عن كتاب محمد بن السائب الكلبي، ولا مقاتل بن سليمان، ولا محمد بن عمر الواقدي؛ لأنهم عنده أظنّاء، (al-Hamawi, 1993) وقد أكد ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال: ''وأما التفاسير التي في أيدي الناس فأصحها تفسير محمد بن جرير الطبري، فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة، وليس فيه بدعة، ولا ينقل عن المتهمين كمقاتل بن سليمان والكلبي''. (Ibn Taimiyyah, 2004).

وإلى جانب التأويل بالمأثور، فقد دعم تفسيره باللغة والنحو والشعر، وأشهر ما رجع إليه من كتب اللغة كتاب «معاني القرآن» لعلي بن حمزة الكسائي، وذلك كقوله عند تفسير قوله تعالى ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾. (البقرة 2: 246)، حيث يقول رحمه الله تعالى: ''وكأن بعض أهل العربية يقول: أدخلت «أن» في ﴿ أَلَّا تُقَاتِلُوا ﴾؛ لأنه بمعنى قول القائل: ما لك في ألا تقاتل؟ ولو كان ذلك جائزًا، لجاز أن يقال:«ما لك أن قمت، وما لك أنك قائم؟» وذلك غير جائز؛ لأن المنع إنما يكون للمستقبل من الأفعال، كما يقال: «منعتك أن تقوم»، ولا يقال: «منعتك أن قمت»، فلذلك قيل في «ما لك؟»: «ما لك ألا تقوم؟» ولم يقل: «ما لك أن قمت؟».'' اهـ فقوله: «بعض أهل العربية»، يقصد به الكسائي، كما صرح به الإمام الفراء (1983) (al-Thabari, 2001) وكتاب يحيى بن زياد الفراء، وذلك مثل وقوفه على إعراب قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ ﴾ (البقرة 2: 102) فإنه نقل في بيان ذلك كلام الفراء (1983) مع تصرف في اللفظ حيث قال: '' فإن من في موضع رفع، وليس قوله: {ولقد علموا} بعامل فيها؛ لأن قوله {علموا} بمعنى اليمين؛ فلذلك كانت في موضع رفع، لأن الكلام بمعنى: والله لمن اشترى السحر ما له في الآخرة من خلاق؛ ولكون قوله {ولقد علموا} بمعنى اليمين حققت بلام اليمين. اهـ (al-Thabari, 2001) وكتاب أبي الحسن الأخفش، وذلك مثل تعيينه لمعنى «عرفات» في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ ﴾ (البقرة 2: 198)، حيث يقول رحمه الله تعالى: ''ثم اختلف أهل العربية في «عرفات»، والعلة التي من أجلها صرفت، وهي معرفة، وهل هي اسم لبقعة واحدة، أم هي لجماعة بقاع؟ فقال بعض نحويي البصرة: هي اسم كان لجماعة مثل «مسلمات، ومؤمنات»، سميت به بقعة واحدة، فصرف لما سميت به البقعة الواحدة، إذا كان مصروفًا قبل أن تسمى به البقعة، تركًا له على أصله؛ فأن التاء فيه صرفت بمنزلة الياء والواو في «مسلمين ومسلمون»؛ لأنه تذكيره، وصار التنوين بمنزلة النون. فلما سمي به ترك على حاله، كما يترك «المسلمون» إذا سمي به على حاله''. أهـ (al-Thabari, 2001) فقوله: «بعض نحويي البصرة» يقصد به الأخفش. ونقل غيرهم من أهل اللغة مما يقتضيه الكلام عند حاجته إليه؛ إذ كان هؤلاء هم المتكلمين في المعاني، وعنهم يؤخذ معانيه وإعرابه، وربما لم يسمّهم إذا ذكر شيئا من كلامهم. (Al-Thabari, 2001)

ونقل عن كتاب «مجاز القرآن» (Abu Ubaidah, n.d) الكثير مع قلة الإشارة إليه، وكثرة النقد لما يخالفه فيه، وذلك عند كلامه عن معنى صفة الرحمن في البسملة، حيث يقول رحمه الله تعالى: ''وقد زعم بعض من

ضعفت معرفته بتأويل أهل التاويل، وقلت روايته لأقوال السلف من أهل التفسير، أن «الرحمن» مجازه ذو الرحمة، و«الرحيم» مجازه الراحم، ثم قال: قد يقدرون اللفظين من لفظ والمعنى واحد؛ وذلك لاتساع الكلام عندهم. قال: وقد فعلوا مثل ذلك فقالوا: ندمان ونديم.'' اهـ. فقول الشيخ الطبري: «وقد زعم بعض من ضعفت معرفته الخ»، يعني به أبا عبيدة معمر بن المثنى في كتابه «مجاز القرآن». وأضاف إليه كثيرًا من أراء الفقهاء في المواضع التي احتاج إلى بيان الحكم الشرعي فيها، ورجع إلى القراءات، واستعان بها في التأويل، فكانت القراءات من أهم المصادر التي استعان بها. (al-Turki, 2001)

منهج الإمام الطبري في تفسيره:

كتب في منهج إمام المفسرين ابن جرير الطبري في تفسيره الكثير من علمائنا المتخصصين في هذا المجال، ومن أروع ما يقال فيه وأجمعه ما جلاه محققه الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، حيث يقول: ''يبرز منهج ابن جرير الطبري في تفسيره لمن يطالعه تفرده في الجمع بين الرواية والدراية في براعة منقطعة النظير، فهو يصدر تفسيره للآية بالمأثور عن النبي ε، وبما روي عن الصحابة والتابعين بطريق الإسناد الدقيق، ويتجلى ذلك واضحًا في تصديره لكل آية بقوله: ''القول في تأويل قوله تعالى كذا وكذا''، فيستعرض الروايات الواردة في تأويلها بعد أن ذكر المعنى الإجمالي للآية، فإن كان فيها أكثر من قول ساق تلك الأقوال مقرونة بحجة أصحابها من رواية ودراية، ثم يتعرض لتوجيه الأقوال ويرجح بعضها على بعض من خلال الروايات واللغة إعرابًا وتركيبًا وشعرًا، متجنبًا التأويل بالرأي؛ إذ التأويل بالرأي المجرد عن الدليل لا يعدو أن يكون صدى لهوى صاحبه.

وقد أبان الطبري عن منهجه في ترك القول في القرآن بالرأي حين ساق في مقدمة تفسيره بعضًا من الأخبار التي رويت في النهي عن القول في تأويل القرآن بالرأي، حيث يقول رحمه الله تعالى: ''وهذه الأخبار شاهدة لنا على صحة ما قلنا، من أن ما كان من تأويل القرآن الذي لا يدرك علمه إلا بنص بيان رسول الله ρ، أو بنصبه الدلالة عليه فغير جائز لأحد القيل فيه برأيه، بل القائل في ذلك برأيه وإن أصاب عين الحق فيه مخطئ في فعله وبقوله فيه برأيه، ولأن إصابته ليست إصابة موقنة أنه محق، وإنما إصابة خارص وظانّ، والقائل في دين الله بالظن قائل على الله ما لا يعلم، وقد حرم الله جل ثناؤه ذلك في كتابه على عباده، فقال: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ

عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف8: 33) فالقائل في تأويل كتاب الله الذي لا يدرك علمه إلا ببيان رسول الله ρ الذي جعل الله إليه بيانه قائل ما لا يعلم، وإن وافق قيله ذلك في تأويله ما أراد الله به من معناه؛ لأن القائل فيه بغير علم قائل على الله ما لا علم له به.'' اهـ (al-Turki, 2001)

وقد أجمل ابن جرير الطبري منهجه في التفسير حين بين وجوه تأويل القرآن، فبعد أن عدَّ ثلاثة أوجه لتأويل القرآن استدرك وقال: ''فإذا كان ذلك كذلك، فأحق المفسرين بإصابة الحق في تأويل القرآن الذي إلى علم تأويله للعباد سبيل أوضحهم حجة فيما تأول وفسر، مما كان تأويله عن رسول الله ε دون سائر أمته من أخبار رسول الله ε الثابتة عنه؛ إما من جهة النقل المستفيض فيما وجد فيه من ذلك عنه النقل المستفيض، وإما من جهة نقل العدول الأثبات فيما لم يكن عنه فيه النقل المستفيض، أو من جهة الدلالة المنصوبة على صحته، وأوضحهم برهانًا فيما ترجم وبين من ذلك مما كان مدركًا علمه من جهة اللسان؛ إما بالشواهد من أشعارهم السائرة، وإما من منطقهم ولغاتهم المستفيضة المعروفة، كائنًا من كان ذلك المتأول والمفسر، بعد ألا يكون خارجًا تأويله وتفسيره ما تأول وفسر من ذلك عن أقوال السلف من الصحابة والأئمة، والخلف من التابعين وعلماء الأمة''. اهـ (al-Turki, 2001)

يتبين مما سبق أن إمام المفسرين ابن جرير الطبري أولى بالتفسير المأثور أهمية كبيرة إذ هو أبرز سمة في منهجه في التفسير؛ وذلك لأن الشيخ ابن جرير الطبري كلما فسر الآية الكريمة يقوم أولاً بحشد الروايات المسندة عن النبي ε، وعن الصحابة والتابعين، وفي غالب الأحيان يذكر المعنى الذي يستنبطه من الروايات والذي يرجحه، ثم يذكر الروايات التي تخالفها إن وجدت، فالترجيح بالروايات هو أقوى مرجحات الطبري لما يختاره من المعاني التي يستنبطها، وعلى الرغم من أمانته في ذكر الأسانيد، إلا أنه لم يتوجه إليها بالنقد إلا في القليل النادر، على عكس منهجه في نقده الشديد للتوجيهات اللغوية، والآراء النحوية.

ولهذا أثنى عليه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى حين سئل عن أقرب التفاسير إلى الكتاب والسنة، فقال: ''وأما التفاسير التي في أيدي الناس، فأصحها «تفسير محمد بن جرير الطبري»، فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة، وليس فيه بدعة، ولا ينقل عن المتهمين، كمقاتل بن بكير والكلبي.'' أهـ (Ibn Taimiyyah, 2004)

ولما كان مفسرنا الإمام الطبري علمًا من أعلام أهل السنة والجماعة، فعقيدته هي عقيدة السلف الصالح جملة وتفصيلاً، وقد أفحم المتكلمين من المعتزلة في تفسيره، ورد على جدلهم الباطل، وانتصر لمذهب السلف بالحجة الواضحة والبرهان الساطع، وإن كان خصومه قد اتهموه بماهو بريء منه من التشيع، والجبر، فلا يعدو ذلك إلا أن يكون حسدًا منهم له.

وقد روى عنه الشيخ اللالكائي في «شرح أصول السنة» مجمل عقيدته حيث قال: ''أخبرنا عبيد الله بن محمد بن أحمد – قراءة عليه – قال: أخبرنا القاضي أبو بكر أحمد بن كامل قال: قال أبو جعفر محمد بن جرير: ''فأول ما نبدأ فيه القول من ذلك كلام الله Y وتنزيله؛ إذ كان من معاني توحيده، فالصواب من القول في ذلك عندنا أنه كلام الله Y غير مخلوق، كيف كتب وكيف تلي، وفي أي موضع قرئ، في السماء وجد أو في الأرض، حيث حفظ في اللوح المحفوظ مكتوبًا أو في ألواح صبيان الكتاتيب مرسومًا، في حجر نقش أو في ورق خط، في القلب حفظ أو باللسان لفظ، فمن قال غير ذلك أو ادعى أن قرآنًا في الأرض أو في السماء سوى القرآن الذي نتلو بألسنتنا ونكتبه في مصاحفنا، أو اعتقد غير ذلك بقلبه أو أضمره في نفسه، أو قال بلسانه تدينًا به، فهو بالله كافر حلال الدم، وبريء من الله، والله بريء منه لقول الله جل ثناؤه: ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ (البروج 85: 21-22)، وقال قوله الحق: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ (التوبة 9: 6). فأخبرنا جل ثناؤه أنه في اللوح المحفوظ مكتوب، وأنه من لسان محمد ε مسموع، وهو قرآن واحد من محمد مسموع، وفي اللوح المحفوظ مكتوب، وكذلك في الصدور محفوظ، وبألسن الشيوخ والشبان متلو؛ فمن روى عنا أو حكى عنا أو تقول علينا أو ادعى علينا أنا قلنا غير ذلك، فعليه لعنة الله وغضبه ولعنة اللاعنين من الملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفًا ولا عدلاً، وهتك ستره وفضحه على رؤوس الأشهاد، يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار''.(al-Lalkai, n.d)

ويواصل اللالكائي حكايته عن مجمل عقيدة الإمام حيث يقول: ''وأما الصواب من القول لدينا في رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة – وهو ديننا الذي ندين الله به وأدركنا عليه أهل السنة والجماعة – فهو أن أهل الجنة يرونه على ما صحت به الأخبار عن رسول الله ε. وهكذا الصواب لدينا في القول فيما اختلف فيه من أفعال العباد وحسناتهم وسيئاتهم، أن جميع ذلك من عند الله، والله مقدره ومدبره، لا يكون شيء إلا بإرادته، ولا

يحدث شيء إلا بمشيئته، له الخلق والأمر. وكذلك القول في حقيقة الإيمان بأنه قول وعمل يزيد وينقص، وبه الخبر عن جماعة من أصحاب رسول الله ε، وعليه مضى أهل الدين والفضل. إن الدين الذي ندين به في الأشياء التي ذكرناها ما بيّناه لكم على ما وصفناه، فمن روى خلاف ذلك أو أضاف إلينا سواه، أو نَحَلنا في ذلك قولاً غيره فهو كاذب مفترٍ معتدٍ متحرص يبوء بإثم الله وسخطه، وعليه غضب الله ولعنته في الدارين''. اهـ (al-Lalkai, n.d.)

وكان الطبري كذلك إمامًا في الفقه، فقد ناقش في تفسيره الأحكام الفقهية، وفند بعض أقوال العلماء في كل مسألة، ورجح بعضها على بعض مستدلاً لما خلص إليه رأيه بالأدلة العلمية. ومع ذلك تجنب الطبري القول العاري عن الدليل النابع من الهوى، سواء كان هذا الدليل نقليًا أم عقليًا.

ومن أمثلة ذلك اختياره حكم الجواز في أكل لحوم الخيل والبغال، وذلك عند تفسيره لقوله تعالى في سورة النحل: ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾. (النحل 16: 8)، حيث يقول رحمه الله تعالى: ''والصواب من القول في ذلك عندنا ما قاله أهل القول الثاني؛ وذلك أنه لو كان في قوله تعالى ذكره: ﴿ لِتَرْكَبُوهَا ﴾ دلالة على أنها لا تصلح – إذ كانت للركوب – للأكل، لكان في قوله: ﴿ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ (النحل 16: 5) دلالة على أنها لا تصلح – إذ كانت للأكل والدفء – للركوب. وفي إجماع الجميع على أن ركوب ما قال تعالى ذكره ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ جائز حلال غير حرام، دليل واضح على أن أكل ما قال: ﴿ لِتَرْكَبُوهَا ﴾ جائز حلال غير حرام إلا بما نص على تحريمه، أو وضع على تحريمه دلالة من كتاب أو وحي إلى رسوله ρ، فأما بهذه الآية فلا يحرم أكل شيء. وقد وضع الدلالة على تحريم لحوم الحمر الأهلية بوحيه إلى رسوله، وعلى البغال بما قد بيّنا في كتابنا «كتاب الأطعمة» بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع؛ إذ لم يكن هذا الموضع من مواضع البيان عن تحريم ذلك، وإنما ذكرنا ما ذكرنا ليدل على ألا وجه لقول من استدل بهذه الآية على تحريم لحوم الفرس''. اهـ (al-Thabari, 2001)

لكننا نلمح من إمامنا الطبري أنه يسوق في تفسيره أخباراً من القصص الإسرائيلي، ومن ثَمَّ يتعقَّبها بالنقد والتمحيص، لكن وعلى الرغم من ذلك فاته بعض المرويات التي لا تزال تحتاج إلى النقد الفاحص والتمحيص

الناقد، ومن أمثلة ذلك قيامه بتحقيق القول فيمن قرب قربانًا من بني آدم في قوله تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا ﴾ (المائدة 5: 27)، وانتهى إلى القول بأن أولى القولين بالصواب في ذلك أن اللذين قربا القربان كانا ابني آدم لصلبه، لا من ذرية بني إسرائيل. (al-Thabari, 2001) وترك التعليق على كثير منها معتمدًا على ذكره للسند كما فعله عند ذكره قصة عاج بن عناق، وفي رواية أخرى عوج بن عناق، وهو رجل من الجبارين الذين أمر الله تعالى بني إسرائيل بمحاربتهم في أرض كنعان. والإمام الطبري في ذكره هذه القصة لم يقم بتعليقها، واكتفى بإسنادها إلى السدي ومجاهد. (al-Thabari, 2001)

وكذلك نجد رحمه الله تعالى يستعين كثيرًا جدًا فى صياغة تفسيره باللغة، وقد مكنه من ذلك غزارة علمه بالعربية ومعرفته لدلالات ألفاظها وتراكيبها، كما أنه استفاد من علماء اللغة الذين سبقوه إلى بيان مفردات القرآن، كيحيى بن زياد الفراء، وأبي عبيدة معمر بن المثني، وسعيد بن مسعدة الأخفش، وعلي بن حمزة الكسائي، وأبي على قطرب، والنضر بن شميل وغيرهم. وعلى الرغم من كثرة نقولاته في اللغة عن أبي عبيدة في «مجاز القرآن» وإن لم يسمه في الغالب، فإنه يشتد عليه في النقد إذا خالفه، حتى إن نقده له يصل إلى حد وصمه بالغباء، كقوله: ''وقد زعم بعض أهل الغباء أن العرب كانت لا تعرف الرحمن، ولم يكن ذلك في لغتها...'' الخ. (al-Thabari, 2001)

وكان الطبري لا يجوز توجيه كلام الله إلا إلى الأغلب الأشهر من معانيه عند العرب، إلا أن تقوم حجة على شيء منه بخلاف ذلك فيسلم لها، فلا يجوز صرف اللفظ عن ظاهره إلا بقرينة؛ وذلك لأن الله جل ثناؤه إنما خاطبهم بما خاطبهم به لإفهامهم معنى ما خاطبهم به.

وقد اتخذ الطبري اللغة مرجحًا له في تفضيل قراءة على قراءة، فرأى أن لغة القرآن يجب أن تحمل على أفصح كلام العرب وأصحه مخرجا عندهم، يقول رحمه الله تعالى: '' إن أحق اللغات أن يقرأ بها كتاب الله من لغات العرب أفصحها وأشهرها فيهم ''، ويقول: '' وأولى ما قرئ به كتاب الله تعالى من الألسن أفصحها وأعرفها، دون أنكرها وأشذها ''، ويقول أيضا: '' وكتاب الله الذي نزل على محمد ρ بلسان العرب ليس لأحد أن

يتلوه إلا بالأفصح من كلامها، وإن كان معروفا بعض ذلك من لغة بعضها، فكيف بما ليس بمعروف من لغة حي ولا قبيلة منها؟ ''.(al-Thabari, 2001)

يقرر الإمام الطبري هنا أن الأخذ بالقراءة الفصحى والجودى أحق وأولى، مع اعترافه بالأخرى بشرط أن تثبت بالنقل المستفيض، فلا تثبت بالاعتماد على مجرد العربية، ولكنها أيضا مشتهرة فصيحة، فإن القراءة سنة متبعة، فالطبري يراعي العلاقة بين النقل واللغة، ومتى قام بينهما تعارض قدم النقل، لأن ذلك هو الأصل وما قواعد اللغة إلا تبع.

ونظرًا لإمامته في القراءات، فقد أبحر في تأويله في القراءات، ورجح بعضها على بعض، ولم يجوز بعض القراءات التي لم ير صحة حجتها عنده، وجعل بعضها أولى بالصواب من بعض. ولكن يؤخذ على الطبري رحمه الله أنه أنكر بعض القراءات، ونفى عنها صفة الصواب، وفضل بعض القراءات على بعض مع أنها جميعًا متواترة، وقد استعمل العبارات الدالة على الإنكار والتفضيل، كقوله: ''والقراءة التي لا أستجيز غيرها هي كذا'' أو ''وهذه القراءة أولى بالصواب'' أو قوله: ''وأولى التأويلين بالآية وأصح القراءتين في التلاوة عندي التأويل الأول''، مثال ذلك تفضيله القراءة على الأخرى مع أن القراءتين كلتيهما صواب لأنهما متواترتان، تفضيله قراءة قوله تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً﴾ (الحشر 59: 7)، حيث قال: '' والقراءة التي لا أستجيز غيرها في ذلك {كي لا يكون} بالياء {دولة} – بضم الدال ونصب الدولة على المعنى الذي ذكرت في ذلك – لإجماع الحجة عليه''.(al-Thabari, 2001)

ولهذا لا يجوز لأحد اتباعه في رده أو إنكاره، أو تفضيله لقراءة متواترة على أخرى، وعلى ذلك إجماع الأمة. قال ابن الجزري: ''كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً وصح سندها، فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها، ولا يحل إنكارها، بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن، ووجب على الناس قبولها، سواء كانت عن الأئمة السبعة أم عن العشرة أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين''. اهـ (Ibn al-Jazari, n.d)

وإضافة إلى ذلك فإن الطبري اعتنى أيضا في تفسيره بالنحو عناية كبيرة، وأحكم تطبيق قواعده في تفسيره القرآن إحكامًا يعكس طول باعه في هذا العلم. ومن أوضح أمثلة ذلك استعانته في تأويل القرآن ببيان وجوه الإعراب حيث قال: ''وإنما اعترضنا بما اعترضنا في ذلك من بيان وجوه إعرابه – وإن كان قصدنا في هذا الكتاب الكشف عن تأويل آي القرآن – لما في إختلاف وجوه إعراب ذلك من اختلاف وجوه تأويله، فاضطرَّتْنا الحاجةُ إلى كشف وجوه إعرابه لتنكشف لطالب تأويله وجوه تأويله على قدر اختلاف المختلِفة في تأويله وقراءته''. اهـ (al-Thabari, 2001)

وقد التزم الطبري في ترجيحاته الحياد التام بين مدرستي البصرة والكوفة، فهو يستعرض آراء المدرستين ثم يرجح ما يراه أولى بالصواب، سواء أكان الصواب مع مدرسة البصرة أم الكوفة، معللاً ترجيحه بأسلوب جذاب لا يستطيع المنطق أن يرده.

وقد أفاد الطبري كثيرًا من كتاب «معاني القرآن» للفراء، وهو من أئمة نحاة الكوفة، وأكثر من الاستدلال بالأشعار على توضيح المعنى المراد مثل استدلاله ببيت الأعشى في بيان معنى التأويل في قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ﴾ (آل عمران 3: 7): ''ودونك أنشودة هذا البيت:

على أنها كانت تأول حبها * تأول ربعي السقاب فأصحبا''

(al-Thabari، 2001) وذلك لعلمه أن الشعر ديوان العرب، وقد اقتدى في ذلك بحبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما الذي كان يقول: ''إذا قرأ أحدكم شيئًا من القرآن، فلم يدر ما تفسيره، فليلتمسْه في الشعر، فإنه ديوان العرب'' (al-Baihaqi, 2003). اهـ (al-Turki, 2001)

الخاتمة

كشفت الدراسة أن تفسير الإمام ابن جرير الطبري الموسوم بالتفسير بالمأثور هو أعظم أمهات كتب التفسير لكتاب الله عز وجل وأولى أن يحتذى به في نهجه ومحتواه، وأنه أول كتاب كامل في تفسير القرآن الكريم يجمع بين النقل والعقل في براعة منقطعة النظير، إنه بجانب عنايته الفائقة والتزامه الدؤوب بالتفسير النقلي بتحضير

مختلف الروايات الواردة عن النبي ρ والصحابة والتابعين الخاصة بتفسير كلمة أو أسباب نزول الآية أو ناسخها ومنسوخها وما إلى ذلك من أمور ما أمكنه ذلك، كان يعني بنفس العناية والالتزام بالتفسير العقلي الذي يتعرض فيه لاستنباط المعاني من الروايات وتوجيه الأقوال توجيها دقيقا، ونقد بعضها وترجيح بعضها على بعض مستندا إلى الروايات ومتجنبا التأويل بالرأي، ويهتم أيضا ببيان أوجه الإعراب والاستدلال بأشعار العرب اهتمام الحذاق به، مما تظهر من خلاله فحولته في علوم اللغة العربية صرفًا وتركيبًا ودلالة.

فتفسيره إذن يعتبر من ناحيةٍ ذروةَ التفسير بالمأثور كما يعتبر من ناحية أخرى نقطةَ البدء وحجر الأساس لمنهج التفسير بالرأي، إذ أنه يضم بين جوانحه بذور الاتجاهات التي أدت إلى التفسير الزائد على مجرد الرواية والتي فتحت بابا واسعا لإعمال الرأي وبدء المرحلة الثانية في تطور التفسير.

وبالجملة نستطيع القول بأن الطبري لم يكتف بمجرد تسجيل آراء سابقيه وتقليدهم، بل إنه صاحب رأي مستقل، يشفع رأيه بالدليل، ويرد ما يراه ضعيفًا، ويرجح بين الآراء، ويؤيد ترجيحه لرأي على رأي بالحجة القوية، ولذلك حق له أن يكون إمام المفسرين وكعبة القاصدين في علم التفسير ورائد النهج القويم فى الجمع بين النقل والعقل.

REFERENCES

Ibn al-Jawzi, Abu al-Khair Muhammad bin Muhammad al-Dimasqi. (n.d). *Al-Nasyr fi al-qira'at al-'asyr*. Beirut: Dar al Kutub al Ilmiyyah.

Ibn Taymiyyah, Ahmed bin Abdul Halim bin Abdul Salam. (2004). *Majmu' fatawa Sheikh Al-Islam Ahmed bin Taymiyyah*. Collected and arranged by Abdul Rahman bin Muhammad bin Qasim and his son Muhammad. Kingdom of Saudi Arabia: the King Fahd Complex for the Printing of the Noble Qur'an.

Ibn Manzoor, Jamal al-Din Abu al-Fadl Muhammad ibn Makram ibn Ali al-Afriqi. (1414). *Lisanul Arab*. Beirut: Dar Shodir.

Abu Ubaidah, Muammar bin Al-Muthanna Al-Taymi. (n.d). *Majazul Qur'an*. Cairo: Maktabah al Khanji.

Al-Bayhaqi, Abu Bakr Ahmed bin Al-Hussein bin Ali bin Musa. (2003). *Syu'abul Iman*. Riyadh: Maktabah al Rushd.

Jalal al-Din al-Suyuti, Abu al-Fadl Abd al-Rahman ibn Abi Bakr. (n.d). *Al Itqan fi ulumil Quran*. Kingdom of Saudi Arabia: the King Fahd Complex for the Printing of the Noble Qur'an.

Hussein Ali Al-Harbi (Dr.). (2008). *Manhajul Imam at Thabari fit tarjih*. Jordan: Dar Al-Janadiriyah.

Al-Dawudi. Shamsuddin Muhammad bin Ali bin Ahmed al-Maliki. (n.d) *Thabaqatul mufassirin*. Beirut: Dar al Kutub al Ilmiyyah.

Al-Zamakhshari, Abu Al-Qasim Jarallah Mahmoud bin Omar bin Ahmed Al-Zamakhshari. (1998). *Asasul balaghah*. Beirut: Dar al Kutub al Ilmiyyah.

Al-Tabari, Abu Jaafar Muhammad bin Jarir bin Yazid bin Katheer al-Amali. (2001). *Jami' al-bayan 'an ta'wili ayil Qur'an*. Investigated by Dr. Abdullah bin Abdul Mohsen Al-Turki. Dar Hajar.

Al-Fara, Abu Zakaria Yahya bin Ziyad Al-Farra. (1983). *Ma'anil Quran*. Beirut: 'Alamul Kutub.

Al-Lalka'i, Abu Al-Qasim Hebat Allah bin Al-Hassan bin Mansour Al-Tabari. (n.d). *Syarh i'tiqadi Ahlis Sunnah wal Jama'ah minal kitabi was Sunnah wa ijma'is shahabah wat tabi'in min ba'dihim*. Riyadh: Dar Thaibah.

Mohammed Hussein Al-Dhahabi (Dr.). (n.d). *At Tafsir wal mufassirun*. Cairo: Maktabah Wahba.

Yaqout al-Hamawi, Abu Abdullah Yaqout bin Abdullah al-Hamawi al-Rumi. (1993). *Mu'jam al udaba'*. Edited by Ihsan Abbas. Beirut: Darul Gharb al Islami.

Yaqout al-Hamawi, Abu Abdullah Yaqout bin Abdullah al-Hamawi al-Rumi. (1977). *Mu'jam al buldan*. Beirut: Dar Shodir.